

مضاعفاتها المرعبة المدمرة، أميرنا يقف على أعتاب الموت . . ليس هذا أمراً هيناً . . وعندما يموت الإنسان يترك أحلامنا جميلة لم تكتمل . . يودع ربيعاً نابضاً بالحب لم يذبل بعد، وعندما يموت الإنسان ينظر إلى عيني طفله الصغير اللاهى ويقرأ فى العينين الصغيرتين أحلى قصيدة شعر، وينظر إلى النسوة والرجال الذين أحبهم . . ثم يتصور أنه بعد ذلك سوف يأوى إلى حفرة نائية مظلمة لا حس فيها ولا خبر . . ويطول به المقام فيها ربما لآلاف السنين . . ينام عاجزاً فى قبره . . والأحداث التى تهز العالم تضطرم من حوله دون أن يستطيع المشاركة فى شىء . . ويضحك الأطفال، وتبتسم الغيد الحسان، وتخضر الأرض، وتورق الحدائق، ويجوس الطغاة خلال الديار ويبعثون وينهبون ويرغمون المسلمات على الزواج . . وهو . . هو الأمير . . تحت التراب يرقد عاجزاً كقطعة من خشب متعفن . . أليس الموت رهيباً . .

وكتب أمير «قومول» السجين رسالة عاجلة إلى القائد الصينى، يعتذر له فيها على ما بدر منه من جفاء، ويعدده بالنظر فى الأمر من جديد بطريقة فيها النجاة والفائدة، وطلب منه أن يسمح بلقائه . .

ابتسم القائد الصينى، وأغمض عينيه برهة، كان يفكر فى الأميرة الجميلة وليلة الزفاف الكبرى، والمتع التى سوف يجنيها . . وخيل للقائد آنذاك أن كل شىء تحت تصرفه، وليس فى

الأمكان أن يستعصى عليه أحد، وهو شعور يتتاب المنتصر القوى دائماً، ولو للحظات قصار، وفي هذه اللحظات ينظر إلى البشرية بعين الرثاء والعطف . . عطف القادر المتعالى المتغطرس . . وقال القائد :

- «أحضروا الأمير إلى مجلسى لنرى ماذا يريد».

سرُ أيها الأمير المسكين ولا تحزن، فلن يضيرك أن تكون فى يدك الأغلال، أو يحيط بك كوكبة من الصينيين الأجلاف الذين يتناولون فى البنيان ويشم خون بأنوفهم الصفراء . . سرُ يا أمير «قومول» وأغمض عينيك حتى لا ترى مظاهر الاستخفاف والعنجهية، وامض فى طريقك حذراً، وسد أذنيك عن الكلمات السخيفة، وغض بصرك عن الملامح الشامتة والنظرات التى تنبض بالحماقة والتشفى .

«عم صباحاً أيها القائد» .

- «مرحباً بك يا أمير» .

وجلس الأمير خافض الرأس، وظل الأمر هكذا حتى أمر القائد أغلب رجاله بالانصراف، وما أن خلا الجو حتى مال الأمير التركستانى على القائد هامساً :

- «إن أمراً كهذا لا يحله العنف» .

قال القائد :

- «لم أجد وسيلة أخرى بعد أن أمهلتهم . . وأنت نفسك رفضت زواجى من الأميرة . .» .

- «نستطيع أيها القائد «الصديق» أن نعالج الأمر برفق . .» .

- «كيف؟؟» .

- «عندى فكرة . .» .

- «ما هى؟» .

وطرح الأمير أمام القائد فكرته ، هى تتركز فى أن يطلق سراح الأمير ، حتى يتمكن من الاجتماع بعلماء الشريعة ، ويناقش الأمر معهم ، لعله يستطيع الحصول منهم على «فتوى» دينية تبيح مثل هذا الزواج ، وتلتمس له الأدلة فى بطون الكتب القديمة ، فإذا ما وفق الأمير لإخراج مثل هذه الفتوى الممهورة بتوقيع الفقهاء ، حل الإشكال ، وساد الهدوء ، ونعم الجميع بالأفراح والسعادة . .

ابتسم القائد الصينى وعبث بشاربه وتمتم :

- «أرى إننا نقرب أكثر فأكثر . . والشقة تضيق بيننا . .

وصدقنى أئننى قادر على أن أبقىك على كرسى الإمارة . . وأن لى كلمة مسموعة لدى القيادة . .» .

وأخذ القائد يقهقه بصورة أدهشت الأمير الذى قال :

- «لا أشك إنك سعيد أيها القائد» .

- «كل السعادة يا أمير . . كلما تصورت أن الأميرة بين ذراعى . . وأنى سأنجب منها أطفالاً غاية فى الروعة والجمال . . أكاد أجن من الفرح . . سوف نصبح أسرة واحدة سعيدة . . ولن يكون هناك غالب ولا مغلوب . .» .

هذه الفلسفة الحمقاء التى تتوارى تحت ستار الإنسانية والأخوة، لشد ما أمقتها . . ابنتى بين ذراعيه يا للمهزلة!! إننى أشعر بالتقمزز والغشيان، فما بال المسكينة إذا وقعت بين برائن هذا الحيوان، وانكسب فى سمعها الرقيق غزلة السمج . . ابنتى تجالس هذا الوحش؟؟ كيف؟؟ أعرف أن الإنسان ليس شحماً ولا دماً ولا لوناً فحسب . . إنه الفكرة والمعتقد . . الأشياء العظيمة التى يؤمن بها الإنسان هى التى تجعلنى أنظر إليه وأقيمه، فأحبه أو أكرهه، والفكر يعطى كومة اللحم والعظم معنى وتقبلاً وشفافية . . الفكر يغطى الهيكل . . يكسبه ثياباً . . يجعله يتسم ابتسامته المقبولة، ويتحدث حديثه المحبوب، يجعله إنساناً . .

وغمغم القائد :

- «أعتقد يا أمير أن هناك فرقاً بين الصينى والتركستانى؟؟» .

- «بكل تأكيد» .

التفت القائد إلى الأمير فى دهشة وقال :

- «ماذا؟» .

- «الصينى انتصر» .

فهقه القائد ثم قال :

- «هذا أمر معروف» نحن نتنصر دائماً . . إنه أمر يمتد فى سحيق

تاريخنا . .

فرد الأمير قائلاً :

- «منذ حرب الأفيون وقبلها» .

شحب وجه القائد ، ثم استدرك :

- «لم يستطع التفوق الاستعمارى أن يحو شخصيتنا» .

وسادت فترة صمت قال القائد الصينى بعدها :

- «يقول العلماء إننا شعب ذو صفات غالبية .» .

- «كيف؟؟» .

واستدار القائد صوب الأمير ، وأخذ يشرح له باهتمام كيف أن علماء الوراثة قد أثبتوا أن الصينى إذا تزوج أوربية مثلاً ، فإن الأبناء

يحملون الصفات الصينية، وذلك بسبب قوة «الجينات» التى توجد فى خلايانا.

رد الأمير فى دهشة :

- «وما هى الجينات؟؟».

- «لا أعرف أيها الأمير . . هكذا يقولون . .».

- «يا إلهى . . لماذا كنتم تبيعون بناتكم وأطفالكم . .».

- «هذا كان . . أيام الشقاء والفقر . . لا تذكرنى بهذه الأيام

الحزينة . .».

واكفهر وجه القائد الصينى فجأة، وبدت نذر الثورة على وجهه الأصفر، وهب واقفاً، ثم خطا خطوات داخل قبو صغير، وعاعد فى يده زجاجة من الخمر الردىء، وأخذ يجرع منها فى عصبية، وتحامل على نفسه، وأخذ يقول والغيط يخالط نبراته :

- «بحثت سنوات عنها . .».

- «عمن تتكلم أيها القائد . .».

- «أختى . .».

- «هل فقدت فى حرب . .».

- «اختطفها البعض أيام حرب الأفيون . . لا تصدق ما يزعمون

بعض الحمقى يقولون إن أمى باعتها حتى تطعمنا . . هذا كذب . . كذب . . كذب . .»

وهب الأمير واقفاً وقال :

- « لا تجزع أيها القائد . . وسوف أعود إليك بالأبناء التى تسرك بعد أن التقى بعلماء الشريعة . . أسمح لى بالانصراف؟؟
عادت الإشراقة إلى وجه القائد الصينى ، وقذف بالكاس
يميناً . .

- «تستطيع أن تنطلق حرراً يا أمير قومول . . وسوف نشرب كثيراً ليلة الزفاف . . وسنرقص ونغنى ونضاجع النساء . . ولنرى أن الأجناس لها الصفات الغالبة . . فى الشرق والغرب حاربت . . وكنت الغالب دائماً . . الموت أمر هين . . لم أفكر فيه ولهذا لا أخافه . . تعرضت له ألف مرة ومرة . . وها أنا أحارب وأنتصر . . وأحكم قومول . . سعادتى كلها فى أن أنتصر . . لا أنظر لشيء وراء ذلك يا أمير . . أنتم تفكرون كثيراً فى الجنة والنار» .

- «لأنها حقيقة أيها القائد» .

- كيف؟

- «أنت تمسك الآن بالكأس المملوءة» .

- «نعم» .

- «فأين النشوة التى تحدثها الكأس» .

-«النشوة؟» .

- «نعم . . أين النشوة أيها القائد . . .» .

- «هذا ليست مادة . . لم أقرأ عنها شيئاً فى كتبى المفضلة . . لم

يتحدثوا عن النشوة لأنها ليست مادة . . .» .

- «لكنك تشعر بها . . .» .

- «نعم . . ولولاها لما شربت الخمر . . .» .

- «هى موجودة» .

- «بالتأكيد يا أمير . . .» .

- «أريد أن ألمسها . . .» .

غمغم الأمير :

- «والنشوة العظمى أيها القائد فى جنة الله . . وأنا استشعرها بلا

كأس . . .» .

